

مختصر ابن كثير

44 - تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً .

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه ووتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبته وإلهيته : .
ففي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد .

كما قال تعالى : { تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ... أن دعوا للرحمن ولدا } . وقوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله { ولكن لا تفقهون تسبيحهم } أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان بهم (قال ابن كثير : وهو حديث مشهور في المسانيد) . وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : " اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راکبها وأكثر ذكراً منه " . وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال : نقيقتها تسبيح . وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بشيء أمر به نوح .

ابنه ؟ إن نوح عليه السلام قال لابنه : يا بني أمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق " قال الله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } (أخرجه ابن جرير قال ابن كثير : في إسناده ضعف) . وقال عكرمة في قوله تعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال : الأسطوانة تسبح والشجرة تسبح وقال بعض السلف : صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه .

وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح من حيوان ونبات قال قتادة في قوله : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده } قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه وقال الحسن والضحاك : كل شيء فيه الروح . وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : " إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة " ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ثم غرز في كل

قبر واحدة .

ثم قال : " لعله يخفف عنهما ما لم يبسا (أخرجه الشيخان عن ابن عباس مرفوعا) قال بعض من تكلم عن هذا الحديث من العلماء إما قال ما لم يبسا : لأنهما يسبحان ما دام فيهما خصرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما وإِن أعلم . وقوله : { إنه كان حليما غفورا } أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : " إن اِ لم يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ رسول اِ صلى اِ عليه وسلّم { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة } الآية . وقال تعالى : { وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة } الآية . وقال : { وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة } : الآيتين ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى اِ وتاب إليه تاب عليه كما قال تعالى : { ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اِ } الآية . وقال ههنا : { إنه كان حليما غفورا } كما قال في آخر فاطر : { إن اِ يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا } إلى أن قال : { ولو يؤاخذ اِ الناس } إلى آخر السورة